

ملاحظات على الأصوات في القرآن

خواطر: عنتر صليحي عبد الملاه

اختلفت مع أستاذة علم الأصوات البريطانية Zoe Toft حول إذا كان للأصوات دلالة في حد ذاتها أم لا. وكان من رأيها أن الأصوات إنما تكتسب دلالاتها من تجمعها معاً فصوت مثل ال /p/ لا معنى له إلا إذا ارتبط بأصوات أخرى مثل /pen/ فدلالته هنا هو أنه يميز بين هذه الكلمة وبين /pet/ على سبيل المثال. إلا أنني كنت أرى أن الأصوات قد تحمل معانياً في ذاتها بدون ارتباطها بأي صوت آخر. وكنت أرى أنه لأمر ما افتتح الله بعض سور القرآن بمقاطع صوتية مفردة (مثل طه ويس وآلم وكهيعص) وهي مقاطع صوتية بغض النظر عن أنها حروف مقطعة في العربية. وقد أخبرتني الأستاذة أن هناك عدداً غير قليل من أساتذة علوم اللسانيات يؤمنون بما أؤمن به وأنهم يطلقون على هذه الظاهرة "الرمزية الصوتية" "sound symbolism" ثم ذهبت إلى مسجد لندن المركزي لأداء صلاة التراويح. وبعد انتهاء الصلاة قعد الإمام – والذي كان مصرياً- وجود بضع آيات من القرآن بالقراءات المختلفة. فكان مما قرأ قول الله سبحانه وتعالى "تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً" و قد قرأها القارئ بقراءة ورش فكأنه قرأها هكذا " تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً" و لا فساداً

وتفكرت في قراءة هذه الآية، لقد درسنا أن صوت ال /ae/ من صفاته أنه صوت علوي high أمامي front مستمر continuant وأنه إذا استطال

فصار long vowel فهو يكون موضعاً تمام الإيضاح لكل هذه الصفات ثم تفكرت في الكلمة التي ورد بها هذا الصوت وهي كلمة "الآخرة" هنا فوجدت أن من صفات الآخرة (العلو – التقدم على الدنيا – التي هي مؤنث أدنى – والاستمرار)

ثم تذكرت أننا درسنا أن من صفات الصوت /i/ أنه صوت قصير short وليس long vowel وأنه صوت مخرجه منخفض low إذا يتقدم فيه اللسان ناحية الأسنان الأمامية بانخفاض شديد في جسم اللسان (وجدت أن كلمة الأرض – كما يقرأها ورش بحيث لا تكاد تسمع الألف وكأنها "الرض" – تحمل كل هذه المعاني فالأرض مقارنة بالآخرة قصيرة ضئيلة ذليلة منخفضة الوضع والقدر)

ثم رأيت أن صوت ال /u/ يوصف بأنه صوت علوي بالدرجة الأولى إذ يتراجع فيه اللسان إلى خلف الحنك ثم يرتفع بجسمه كله وأنه صوت عال وأنه صوت خلفي. وجدت أن كلمة "علو" تبدأ بصوت العين يليها هذا الصوت العالي ثم صوت اللام يليها نفس الصوت ثم الصوت نفسه طويلاً long vowel ثم تنتهي الكلمة بصوت النون الرنان. وعجبت من كلمة تعبر عن العلو والتكبر في الأرض تحوي كل هذا القدر من أصوات العلو التي تعبر- فضلاً عن العلو نفسه – عن استمرار العلو كذلك بما يؤدي إلى النتيجة الحتمية وهي "الفساد".

وحتى هذه الكلمة الأخيرة "فساداً" لاحظت أن أوضح أصواتها هو السين /s/ وهو صوت له خصوصية وقصص لدى علماء الأصوات، ولكنه بشكل عام صوت هامس hissing تنفيسي كما وسمه نحاة العربية، احتكاكي fricative فإذا تفكرت في معنى الفساد وجدت أنه نشاط احتكاكي بالدرجة

الأولى – سواء كان احتكاكاً بآخرين أو احتكاكاً بالنفس البشرية ذاتها – وهو احتكاك يشي بالسوء، ثم وجدت أنه نشاط تنفيس يقوم به أفراد يسيطر عليهم مرض نفسي – سواء كان تكبراً أو إحساساً بالذل¹ والمهانة – وأنه في بدايته يكون دقيقاً هامساً لا تكاد تشعر به حتى إذا استفحل صار سفكاً² أو عتواً. كما أن الكلمة تنتهي بصوت الفتح الممدود /ae/ long وهو صوت يدل كما رأينا على الاستمرار – وهنا يشير إلى الاستمرار في الفساد و بذلك يكون المعنى – والله اعلم – أن الدار الآخرة العالية المستمرة المفضلة على الأرض الخفيضة الدليلة الزائلة – إنما تكون للذين لا يتكبرون في الأرض ولا يفسدون ولا يستمرون في إفسادهم – وبذلك فهناك فرصة للعصاة الذين أفسدوا في الأرض كي يتوبوا ولا يستمروا في إفسادهم. والله تعالى أعلى وأعلم.

¹ يوصف الإنسان بالذل وتوصف الدابة بالذلة لنفس السبب – وهو أن صوت الضم /u/ يشير إلى الاستعلاء وصوت الخفض /i/ يشير إلى التذني – لاحظ كيف وصف الله سبحانه و تعالى اليهود – رغم أنهم بشر – بانهم ضربت عليه الذلة (البقرة: 61) وليس الذل، لأنهم لا يستحقون ان يوصفوا بما يوصف به البشر العاقلون، وإنما هم أحفاد الفردة والخنازير فيحذوا حذوهم في صفاتهم الدليلة – والله تعالى أعلى وأعلم.

² "قالوا أ تجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك" البقرة: 30